نظرات سريعة

فى ثقافة الصين الروحية

هذا نوع من النظرات طريف ، وضرب من ضروب الثقافة غريب ، اشتغلت به منذ سنين خمس . ثم صرفتنى عنه المشاغل والأيام ، ولما أزل فى بداءته ، وأذكرنيه الآن ماقرأته أخيراً عن «البعثة الصينية» التى جاء أعضاؤها يطلبون العلم فى الأزهر الشريف ، كما أذكرنيه وعد لى بالعدد السادس فى الرد على الدكتور زكى مبارك بنشر ما كتبته سابقاً عن «التصوف فى الصين» .

و إذا كان لى أن أسر بأن أعود إلى هذا البحث ، أتلمس فيه معنى من المعانى الروحية السامية ، التى تأصلت فى نفوس اخواننا الصينيين . بل إذا كان لى أن أسر أكثر لأنهم اخوان لنا فى الشرقية ، من الشرق نشأت فلسفتهم ، وفى الشرق هبط وحيهم ، وعلى الغرب أشرقت شمسهم — فانني لا أملك نفسى أدفعها من الحزن ، ولا أستطيع بالغاً ما بلغ منى ضبط النفس أن أمنع صرختى ، وهى تود أن تنطلق انطلاق السهم لتعلن — فى غير رفق ولا لين — أن الجامعة المصرية تهمل هذا الضرب العريق من العلم ، وتغفل ذلك النوع الأصيل من الفلسفة .

على أن إغفال الجامعة لتلك البحوث لا يقتصر عليها فحسب ، بل تذهب إلى أبعد من هذا ، فتمد سلطانها — وهو سلطان الجحود والانكار — على الفلسفة الهندية وما لها من شأن لا يستطيع أشد الفلاسفة إغراقا فى التعصب أن ينكره أو يجحده ، وإلا فقل لى بربك ، ما شأن فلسفة يدرس فيها الفرع دون الأصل ؟ وما شأن تاريخ للفلسفة تعرف منه حلقة وتجهل منه حلقات لاتتم السلسلة بدونها ؟

ذلك شأن الفلسفة القديمة فى الجامعة فما أهونه ، وشأن العلم عند قوم نعلق عليهم آمالنا .. و بعد . فهذه ثورة نفس أطلقناها ، وما كنا لنسردها على القراء لولا إخلاص يدفعنا إلى إظهار الحقائق ، والكشف عن المخبوء ، ولخير لى أن أذهب للطبيب أصارحه الداء ، فيصارحنى الدواء ، من أن أموت بالعلة خبيئها .

على ضوء ما قدمت ، أريد أن أسلك بالقارىء سبيلا جديداً فى هذا البحث الذى أود ألا يظنه « عنقاء مغرب » أو خيال واهم ، أو هيكل عظام بالية ، أو وحشاً ضاريا يفترس رقيق العظام ، أو علماً جامداً يقوم على عميق الاستقراء فتملله النفوس وتهجره ، زاعمة — فى غير ما حق ولا ولاء — أن الفلسفة عامة ، والقديم منها بصفة خاصة ، لايتفق والروح الحديث ، أو يلتئم وذهن ابن القرن العشرين .

والحقيقة واحدة لا تتغير، ليس فى ذلك من ريب، وما كان قديماً اليوم فقد كان جديداً بالأمس، وما الجديد والقديم إلا مظاهر، أو ظواهر لأعراض لا تمس الجوهر فى قليل ولا كثير. وقديماً قيل:

إن ذلك القديم كان حديثاً وسيبقى هذا القديم حديثاً

مذهب فوهى:

والآن فلا رجع بك إلى خمسين قرناً أو تزيد، بل إلى عام ٣٤٦٨ ق. م على التحديد، وهو ذلك العام الذى وضع فيه الفيلسوف « فوهى » أول كتاب عرف فى اللغة الصينية عن الفلسفة الروحية — لتعرف أن الروح التى أملت على « فوهى » كتابه قد انصرفت به إلى الروحانيات البحتة، تاركة وراءها كل ما يتعلق بالماديات، وبحسبك أن تعلم أن « فوهى » يرى للعالم روحاً خرجت منه جميع الأرواح وإليه تعود، وأن له إدراكاً يدرك به خروج الروح وعودته ثانية .. وهكذا دواليك.

بحسبك هذا لتعلم أن الروح فى نظر « فوهى » لا تفنى ولكنها خالدة أبداً ... لهذا أوصى أتباعه ومريديه بأن يكونوا رفقاء بالحيوان، رحماء بقبيله. حتى لقد ذهب أتباعه إلى حد اتخاذ بعض الحيوان آلهة من دون الله ... وإذا كان ذلك يعد منهم مغالاة فى الرفق، وإغراقاً فى الرحمة — فأن الباعث عليه إنما هو العقيدة الراسخة بخلود الأرواح أيا كان نوعها.

ونحن نرى بعض هذه التعاليم مبثوثاً فى تعاليم « فيثاغورس » الفيلسوف اليونانى، إلى حد ليس باليسير: فقيثاغورس يرى أن روح هذا العالم العظيم إنما هو الأثير، وأن من الأثير خرجت جميع الأرواح « الجزئية » للانسان والحيوان، وأن الارواح لا تفنى ولكنها تسبح فى الهواء من جهة إلى أخرى حتى تصادف جسما — أيا كان نوعه — فتحل فيه.

مثال ذلك: إذا خرجت الروح من جسد الانسان فقد يتفق أن تحل فى جسم حيوان، كما يتفق أن تحل فى جسم إنسان أيضاً، من غير ما فرق بينهما ... كذلك إذا خرجت من جسم أى حيوان فقد تحل فى جسم إنسان، أو فى جسم حيوان آخر، من غير ما فرق أيضاً، لهذا يرى « فيثاغورس » كما رأى « فوهى » من قبل: أن يمتنع الانسان عن أكل أخيه الحيوان. بل يذهب إلى أكثر من هذا. فيزعم أن من يقتل الذبابة والزنبور، أو غيرهما من الهوام يكون مذنباً ذنب الذى يقتل إنساناً، ما دامت سائر الأرواح واحدة! وإذن فقد تأثر فيثاغورس بآراء فوهى بالغ الاثر.

وقد يتفق لنا أيضا أن نجد بعضاً من هذه التعاليم أو نتفا من تلك الآراء مبثوثاً فى شعر المعرى أو فى فلسفته على التحقيق، فالمعرى حرم على نفسه أكل اللحوم، وتلك مسألة مقطوع بصحتها، فقد ثبت أنه مرض فى أخريات أيامه مرضاً شديداً، اضطر طبيبه أن يصف لعلاجه أكل ديك من الدجاج، فما لبث أهله أن قدموه إليه، وما لمسته يداه حتى اقشعر بدنه ورثاه بخير ما يرثى مفقود عزيز، فقال يخاطب الذبيح:

« أيها الديك! استصغروك فذبحوك، ولو كنت من ذوات الأنياب لوقروك »

وفى رواية أخرى : « استضعفوك فوصفوك . . . هلا وصفوا شبل الأسد ؟ ! »
وله فى ذلك قصيدة يقول منها :

غدوت مريض العقل والدين فالقنى لتسمع أنباء الأمور الصحائح
فلا تأكلن ما أخرج الماء ظالما ولا تبغ قوتاً من غريض الذبائح
ولا بيض أمات أرادت صريحه لأطفالها دون الغوانى الصرائح
ولا تفجعن الطير وهى غوافل بما وضعت فالظلم شر القبائح
ودع ضرب النحل الذى بكرت له كواسب من أزهار نخل فوائح
فما جمعته أن يكون لغيرها ولا جعلته للندى والمنائح

وكثيراً ما كان يضمن شعره أبياتاً حكمية فى الرفق بالحيوان ، ومن ذلك قوله :

تسريح كفك برغوثاً ظفرت به أبر من درهم تعطيه محتاجاً
كلاهما يتوقى والحياة له حبيبة ويروم العيش مهتاجاً

والذى نوده من هذا ، هو أن نثبت أيضاً أن المعرى تأثر بهذه الآراء (آراء فوهى) أو بعضها ، وإن كان عن طريق غير مباشر . . . كما نثبت إلى حد بعيد أن « فوهى » كان مبدع هذه الثقافة الخالدة .

مذهب لاوتس :

جاء بعد فوهى « لاوتس » فكان أول الذين حملوا مشعل الثقافة الصينية بعد « فوهى » مراحل من السنين بعيدة . . . ولد عام ٦٠٤ ق.م فلما أن تمت له مقومات الثقافة الروحية أوجد من وضاعها المختلفة مذهباً جديداً دعاه « مذهب طاو » و بعبارة أخرى « مذهب العقل الأسمى » يلخص هذا المذهب فى أن للعالم وجوداً روحياً وظواهر روحية بحتة ، كما يعتقد بانتقال الأنفس ن كائن إلى كائن آخر ، أى أنه يذهب إلى التناسخ ، ويرى أن العقل الأسمى ، هو أصل لآلهة ، منه نشأت المواد الهيولية و إليه تعود . . وتقوم تعاليمه على دعامات من التأمل والعزلة ، هما — فى نظره — الواسطتان الفعالتان لتنقية الطبيعة الروحية ، ويرى أن المعرفة لا تحصل إلا اسطة العقل المحض ، وأن الواجب ألا يؤخذ بما يأتى بطريق الادراك الحسى ، وأن بالعقل سمى وحده تحصل الأشياء ، ومن غير ذلك لا يحصل بتاتاً ، ولذلك يقول لأتباعه : من أراد الوصول إلى المعرفة ، أو يرغب فى الحقيقة ، فلينظر إلى بأمعان ، ولينعم بتبصر ، ا هى ، وهى أنا » و يدعى أتباع هذا المذهب « بالطاوسى » أى العقليين.

ونحن نلاحظ أيضاً أن ثمة أوجها من الشبه ليست بالقليلة بين « لاوتس » و « زينون » من ية ، و بينه و بين « الحلاج » من ناحية أخرى .

يقول « لاوتس » لأتباعه : « من أراد الوصول إلى الحقيقة فلينظر إلى بامعان ولينعم بتبصر ، فأنا هى ، وهى أنا » ونجد ذلك المعنى فى قول « الحلاج » تلميذ « الجنيد » وهو « مافى الجبة إلا الله » وفى قوله « أنا الحق » وفى قوله :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا
فاذا أبصرتني ... أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا

وتتبين ذلك واضحاً تمام الوضوح فى قوله :

سبحان من أظهر ناسوته فى سنا لا هوته الثاقب
ثم بدا فى خلقه ظاهرا فى صورة الآكل والشارب
حتى لقد عاينه خلقه كلحظة الحاجب بالحاجب

بحسبنا هذا و إلا يطول بنا القول لو أردنا الشرح والاستقصاء . وننتقل إلى تبيان أوجه الشبه التى نراها بين كل من : « لاوتس » و « زينون »

يقول زينون : إنه ينبغى لكل إنسان أن يعيش بمقتضى الطبيعة ، أى لا يفعل ما يخالف حكم العقل ، فالعقل هو القانون العام المشترك بين جميع الناس ، كذلك ينبغى لكل إنسان أن يتمسك بالفضيلة لذاتها ، لا لما يترتب عليها من ثواب ، فانها بذاتها كافية لاسعاد المرء ، فمن تمسك بها تمتع بكمال الراحة ، ولو أحاطت به صنوف المتاعب من كل جهة ، وأنه لا نافع إلا ما كان صلاحاً ، ولا نفع فى الذنب مطلقاً ، وكذلك تنزيه الحواس بالشهوات ليس من الخير فى شيء ، لا نها مدنسة للمرء ، ولا خير فى المدنس . وطبع الحكيم : شدة الأخلاق العالية ، ودوام التأملات الأهية ، والاسترسال مع الأنفاس الربانية لتتم للروح نقاوتها ، ولتكون بذلك صالحة للحياة الثانية التى ستكون بعد هذه الحياة الأولى .

مما يتقدم يتضح لنا بجلاء تام أن أثر الفلسفة الصينية واضح بعض الوضوح — إن لم يكن كله — فى نواح عدة من نواحي الفلسفة اليونانية والاسلامية ، لكن كيف كان هذا التأثر أو ذلك السبيل الذى يسر لهذه الآراء وجودها فى الفلسفتين الأخريين . . هذا ما لم نعرفه على التحقيق ، وأظهر ما نعرفه عن ذلك إنما هو فى تطور فلسفة « كونفشيوس » الذائعة الصيت ، والتى لاقت رواجاً فاق سابقتيها بمراحل ، ولعل السر فى عدم وضوح هذين المذهبين المتقدمين وضوحاً تاماً يرجع إلى عراقتهما فى القدم .

أما مذهب « كونفشيوس » فيرجع عهده إلى القرن السادس قبل الميلاد فهو إذن حديث بالنسبة للآخرين ، وفلسفته واسعة رحيبة الجنبات بطول البحث فيها ، وقد نتناوله فى فرصة أخرى .

على أن هذا لا يمنعنا من أن نتوجه إلى الذين يعلمون شيئاً عن هذين المذهبين ، راجين إليهم أن يستوعبوا ما أذعناه عنهما فى تمعن وصدق . ثم أن يبدوا آراءهم فيهما ، فانا لم نقصد من دراستنا هذه سوى أن نستنهض الهمم ونحفز النفوس ، و إلا فتلك نظرات عجلى لا أكثر ولا أقل .